لَو كنت تنصفُ في الهوى ما بيننا

لم تهوَ جاريتي ولم تتخيّرِ

وَتركتَ غصنًا مثمرًا بجماله

وجنحتَ للغصنِ الذي لم يثمرِ

ولقد علمت بأنّني بدر السما

لَكن دهيت لشقوتي بالمشتري

ولَّادة بنت المستكفي وابن زيدون

فراشة بني أمية

ولَّادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن الأموي، شاعرة أندلسية، من بيت الخلافة الأموية بالأندلس، كانت أمها جارية إسبانية اسمها سكرى وقد ورثت منها بشرتها البيضاء وشعرها الأشقر، وعينيها الزرقاوين.

كان والدها آخر خلفاء الأندلس، وقد كان سيئ السيرة ضعيفًا، مجاهرًا بالملذات، فخلعه أهل قرطبة، ومات مقتولًا أو مسمومًا، وكانت ولَّادة يومئذ في السادسة عشرة من عمرها، وقد ربى ابنته على حياةٍ لاهية عابثة تلائم سيرته، وكانت في الوقت نفسه أديبة شاعرة، وكان لها في منزلها بقرطبة مجلس أدبي أشبه بمنتدى سكينة بنت الحسين في المدينة المنورة، وهذا المجلس كان يضم عددًا من الشعراء والأدباء والظرفاء، وكانت تلقَّب باسم فراشة العصر الأموي.

أما ابن زيدون فكان ينتمي إلى قبيلة مخزوم، عاش في قرطبة وكان شاعرًا لا يشق له غبار وبرع كذلك في النثر، وكانت قرطبة آنذاك تحت حكم بني جهور، ويعد عصره أزهى عصر أدبي في الأندلس، وفي شبابه كان يتردَّد على الصالون الأدبي لولادة بنت المستكفي فنشأت بينهما علاقة حب متبادل، ولا سيما في بداياتها، وتفجرت على شكل قصائد رائعة حفظت لنا قصة هذا العشق الأندلسي بين ولادة وابن زيدون، وتبادلا الحب الجارف العنيف، وتعلقت هي به وأحبته بعمق وجهرت بعشقها له إذا غاب عنها، فقالت فيه:

أَلا هَل لنا من بعد هذا التفرّق

سبيلٌ فيشكو كلّ صبّ بما لقي

وَقد كنت أوقات التزاورِ في الشتا

أبيتُ على جمرٍ من الشوق محرقِ

فَكيفَ وقد أمسيت في حال قطعة

لَقد عجّل المقدور ما كنت أتّقي

تمرُّ الليالي لا أرى البين ينقضي

وَلا الصبر من رقّ التشوّق معتقي

سَقى اللَه أرضاً قد غدت لك منزلاً

بكلّ سكوب هاطل الوبل مغدقِ

شارك ابن زيدون في الأحداث السياسية وتوزعت حياته بين الحب والسياسة، وقد قرَّبه أمير قرطبة إليه، وولَّاه الوزارة، وطابت له الأيام.

وعاش ابن زيدون أياما سعيدة مع أميرة حبه ولادة وقد أفصح لنا عن بعض تفاصيل علاقته بها، فقد جاء على لسانه قوله: كنت في أيام الشباب وغمرة التصابي هائما بغادة تدعى ولادة فلما قدر اللقاء وساعد القضاء كتبت إليَّ تقول:

ترقّب إذا جنّ الظلام زيارتي

فإنّي رأيت الليل أكتم للسرِّ

وَبي منك ما لو كانَ بالشمسِ لم تلح

وبالبدر لم يطلع وَبالنجم لم يسرِ

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، أقبلت بقدٍّ كالقضيب، وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج، وظل سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودر الطل منثور وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها، وأدركت

فينا ثارها، باح كل منا بحبه وشكى أليم ما بقلبه، وبتنا ليلة نجني فيها أقحوان الثغور ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحا أنشدتها ارتياحا:

ودّع الصبرَ محبّ ودّعك

ذائع مِن سرّه ما اِستودَعك

يقرع السنّ على أَن لم يكن

زادَ في تلك الخطى إذ شيّعك

يا أَخا البدرِ سناء وسنى

حفظ اللَه زماناً أطلَعك

إن يطُل بعدك ليلي فلكم

بتّ أشكو قصرَ الليل مَعك

إلا أن هذه السعادة لم تدم طويلًا فقد نافسه فيها وزير آخر هو ابن عبدوس الذي راح يكيد لابن زيدون، وقد أفلح في دسائسه، وسجن ابن زيدون لأسباب سياسية، ومكث في السجن عامين، وهو ينظم الشعر في استعطاف ابن جهور من دون فائدة، وهو في الوقت نفسه لم ينس حب ولادة وهو يعاني عذاب السجن، فكان يرسل إليها القصائد ويؤكد حبه لها، كقوله:

مَتى أبُثّكِ مَا بي

يا راحَتي وعذابي؟

مَتَى يَنُوبُ لِسَاني

في شَرْحِه، عن كتابي؟

اللَّهُ يَعْلَمُ أنّي

أصْبَحْتُ فِيكِ لِمَّا بي

فلا يطيبُ طعامي

وَلا يَسُوغُ شَرَابي

ولما يئس من عفو أمير قرطبة عنه، لجأ إلى الفرار من سجنه، وأقام في ضاحية قرطبة، متواريًا عن الأنظار.

أما ولادة فقد بقيت في أول الأمر على حبها لابن زيدون، ولكن لم تستطع لقاءه لدواعٍ سياسية، فكتبت إليه أبياتًا أولها:

أَلا هَل لنا من بعد هذا التفرّق

سبيلٌ فيشكو كلّ صبّ بما لقي

ولم تلبث ولادة أن سئمت الانتظار، وكان الوزير ابن عبدوس مستمرًّا في محاولة التواصل معها، حتى وجد قبولًا لديها فانصرفت إليه.

وفي تلك الأثناء مات أمير قرطبة ابن جهور، فعاد إليها ابن زيدون وانضم إلى ولده وكان صديقًا له، ولكن بعض الجفاء كان يسود علاقتهما، ولا سيما أن ابن زيدون أظهر ميلًا إلى جارية لولادة سمراء، تدعى سكرى، وهذا ما أغضب ولادة وبدأت الغيرة تستحكم بينهما، يصف لنا ابن زيدون تأثير غضبها وموقفها وقال:

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك، وهكذا انهار ذلك الحب.

وبالحبر على ورق الكافور كتبت ولادة لابن زيدون أبيات شعر تصف تلك الواقعة التي عصفت بحبها وهي تقرر هجره وتظن كل الظن أن ابن زيدون قد هوى جاريتها تقول فيها:

لَو كنت تنصفُ في الهوى ما بيننا

لم تهوَ جاريتي ولم تتخيّرِ

وَتركتَ غصناً مثمراً بجماله

وجنحتَ للغصنِ الذي لم يثمرِ

ولقد علمت بأنّني بدر السما

لَكن دهيت لشقوتي بالمشتري

واستغل ابن عبدوس ذلك فراح يتقرب إليها مرة أخرى، ولما كانت ولادة امرأة متقلبة، لا تعرف الإخلاص في الحب، ولها أشعار يشيع فيها العبث، كقولها:

أنا واللهِ أصلحُ للمعالي

وأمشي مِشيَتي وأتيهُ تِيها

أمكِّن عاشقي من صحنِ خدِّي

وأمنحُ قُبلَتي من يَشْتَهِيها

فحتى ابن عبدوس لم تُخلص له في حبها، بل اتخذته هدفًا للعبث به والترويح عن نفسها، ومكايدة ابن زيدون، وهذا ما دفع ابن زيدون إلى إنشاء الرسالة الهزلية التي أرسلها إلى ابن عبدوس على لسان ولادة يهزأ به ويهجوه بكلمات قاسية.

وما لبث أن عاد الحسَّاد إلى مناوءة ابن زيدون، فتآمر ابن عبدوس على ابن زيدون حتى يبعده عن ولادة، ولما أُهدر دمه فرَّ بجلده من سجنه إلى إشبيلية ومن هناك كتب إليها قصيدته النونية ذائعة الصيت جاء في بعضها:

أضْحَى التّنائي بَديلاً عنْ تَدانِينَا

وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا

أَلاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا

حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا

مَنْ مُبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهِمُ

حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا

أَنَّ الزَمانَ الَّذي ما زالَ يُضحِكُنا

أُنسًا بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينا

وعندما انتقل إلى إشبيلية اتصل بأميرها عبَّاد الملقَّب بالمعتضد، فجعله هذا وزيرًا له.

وفي زمن ولده المعتمد بن عبَّاد غزا ابن زيدون قرطبة وضمها إلى إشبيلية فزادت منزلته عند المعتمد بن عباد الذي جعل قرطبة عاصمة لإمارته.

توفي ابن زيدون في إشبيلية سنة 463 هـ وهو في التاسعة والستين من عمره.

أما ولَّادة فقد عاشت عزباء طوال حياتها، ولم تتزوج حتى بلغت الثمانين عامًا وقيل مائة، ثم توفيت سنة 480 أو 484 هـ، أي بعد وفاة ابن زيدون بعقدين من الزمن تقريبًا.